الأنباء
الجمعة 19 يونيو 2015

رمضان كريم

أسرار النجوم

دريد لحام لـ «الأنباء»: رمضان له مكانة في حياتي منذ الصغر ولآن

دمشق ـ هدى العبود

ما أن تلقينا تكليف مكتب دمشق بلقاء من لهم مكانة عربية وعالمية في عالم الفن، حتى يممنا شطر منزل الفنان والنجم الكبير دريد لحام، الذي طالما أحب «الأنباء» وأحبت فنه، ولم لا؟ سنكون مع ذكريات فنان كبير القدر والقيمة، فنان تربينا على فنه ومقالبه، التي لاتزال مطلبا للفضائيات العربية على مشارب تنوعها، فمن منا لا يحب أن يشاهد مقالبه الخفيفة التي تعطي للمكان والزمان حقه، واليوم يعاني الفنان الكبير دريد لحام «كما يعاني أي سوري غصة وطن، وهو من قام بتمثيل «كأسك يا وطن»، نعم لقد أبكانا من خلال كأسك يا وطن، وغربة، والحدود، هذا الرجل المفعم بحب وطنه، المتأثر بما يجري اليوم على ارض أقدم مدينة في التاريخ، نعم يقف أمام ذكرياته شامخا، وحزن عميق يزين محياه.

على باب منزل الكبير لحام بحي المزة بدمشق.

وصلنا حي المزة الفاخر في العاصمة السورية دمشق، استقبلتنا سيدة جميلة باسمة الثغر، إنها رفيقة درب الفنان الكبير، وسيدة البيت الفنانة والمذيعة سابقا هالة لحام، مهللة مسهلة لنا بدايات رحلتنا لتصطحبنا إلى بيت مملوء بالذكريات مع كبار الرؤساء، والفنانين في العالم.

استقبلنا «بقوله أهلين حبيباتي»، ولمح أننا خجلون بعض الشيء، «لكن الكبار عندما يستقبلون ضيوفهم يعلمون جيدا أن ثمة توجسا من خطأ ما أمام قامة فنية كبيرة، ويدرك ما يعتلج في نفس الضيف، لقد كان مدركا لما يجول بخاطرنا»، انه حبيب الملايين، المحبين لفنه ولباقته.. إننا في حضرة «فنان عرفناه، وشاهدناه من خلال مئات الأعمال، ولعل من أبرزها كأسك يا وطن، غوار الطوشة، أبو الهنا، وأبواب الريح، سنعود بعد قليل والقائمة تطول.

دريد لحام كيف كان يقضي أيام رمضان صغيرا؟

● أنتم تذكرونني بأيام الزمن الجميل، بالأم التي ربت وسهرت على دريد وأشقائه، رغم المعاناة من الفقر في ذلك الوقت، لم أنس تلك الأيام لكن لشهر رمضان وقع ما على حياتي «انه شهر الذكرى الغالية والبعيدة عنه صاحبتها، لكنها لا تفارقه، فكلمة يا رضا الله ورضا الوالدين، أجمل وأغلى كلمة ينطق بها لساني».. «إنها أهم شيء في حياتي رحمها الله».

أمي هي وطني الأول، وهي أكثر وطن آمن يعيشه الإنسان، لأنه يعيش 9 أشهر في أحشائها رغم الظلمة، ومع ذلك يكون آمنا، والدليل على ذلك عندما يولد أي طفل يولد وهو يبكي. ترى لماذا؟ لأنه لا يريد أن يترك هذا الوطن الآمن، وأنا شخصيا عندما أسأل من أين أنت؟ من قبل أي إنسان، سواء في سورية أو خارجها، أقول: ان وطني الثاني سورية ووطني الأول هو رحم أمي.

حدثنا عن ذكريات حي الأمين الدمشقي والعتيق؟

● في ذلك الحي الذي حمل ولقب بأكثر من اسم ولعل أشهر اسم أطلق عليه «زقاق الشرفاء» هناك كنا نعيش في حي الأمين الدمشقي العريق، أسرة متحابة متكاملة، من أعمام وعمات مع جدودنا رحمهم الله.. ولكن أجمل ما احمله ولا يتركني بل ويسكنني، أجمل صوت هو صوت أمي رحمها الله، وهي توقظنا للسحور، أما اليوم فنحن لا ننام لأننا نتابع أخبار وطن يسرق منا وتسرق معه أحلامنا.

ماذا عن رمضان وطقوسه في حياة الكبير لحام؟

● عندما تنذرنا والدتي بأن الإمساك قد بدأ، معناه انه علينا أن نشرب قبل الإمساك، من اجل أن يكون الصيام مقبولا، وأحيانا كانت تضحك علينا فتتركنا نشرب، ولكن الوقت لم يكن قد انتهى بعد «أي ان طقوس رمضان تبدأ حقيقة من وقت جلوس العائلة على مائدة السحور والإفطار، إنها من أجمل الصور التي لا يمكن أن أنساها». وبغصة يقول «في بعض الأحيان ذكريات تتلاشى وفي أحيان أخرى تكون حاضرة وبالألوان وبتفاصيلها».

وماذا عن مائدة رمضان؟

● مع الأسف في ذلك الزمن لم تكن الأحوال المادية للعائلة ولأغلب العائلات السورية المجاورة لنا ميسورة، ولذلك فقد كانت المائدة فقيرة بعض الشيء بأنواع الأطعمة التي تعد للإفطار، لذلك كان الطعام يقتصر على إعداد البرغل ومشتقاته، لأنه الأكثر تواجدا، والأرخص ثمنا.. حتى أننا كنا نشتهي في بعض الأحيان الرز.. فيكون الجواب «حناكك تفز.. نحنا قدرتنا رز»، فكان يحضر بشكل دائم البرغل بحمص وببندورة وبكوسا.. وباذنجان بالبرغل.

قيل إن دريد كان الطفل المدلل عند والدته؟

● هذا الكلام صحيح، لقد كنت اشعر من خلال لمسة يدها لي، وقت استحمامي، وتحضير ملابسي، واصطحابي معها الى السوق للتسوق في ذلك الوقت، وعلى فكرة كنت الطفل الرابع عندها أي الأصغر بين أشقائي، فكانت رحمها الله تأخذني معها لشراء أغراض العيد من سوق القباقيب.. وتابع قائلا: إن رضا الوالدين قد يلمسه الإنسان من ابتسامة من لمسة، عندما يكونان في حالة رضا، يشعر برضا لا يوصف، ولا يعادله هذا الشعور أي شعور آخر، إن رضاها كان ذات قيمة ربانية وإلهية.. ألم يوص الله سبحانه وتعالى بالوالدين، وايضا اوصانا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، في الحديث «رضا الله من رضا الوالدين»، ومقابل ذلك لا مكان للأمور المادية، فلم تكن تمثل أي قيمة، رغم «الفقر» لم نكن نشعر بقسوة الحياة ومتطلباتها كما نشعر اليوم، لأن حنانها وتدبيرها للأمور الحياتية الصعبة كانت تعوضه برضاها وحنانها.

كيف كانت العلاقات بين الناس؟

● لم تكن الحياة والعلاقات بين الناس يسودها الحسد، لأن الناس كانت مثل بعضها، اللباس موحد طربوش وشروال.. وكان الدخول إلى البيت تنفسا والخروج منه غما. لذلك تكوين الأسرة السورية القديمة كان أكثر تماسكا من الأسرة الحالية، وهذا كنا نعيشه طوال أيام السنة، لكن خلال شهر رمضان هناك تسامح وحب واحترام لهذا الشهر الفضيل بين جميع الشرائح التي تسكن البيوت العربية القديمة، أما اليوم فإن السكن مع الأسف، أغلبه من خلال المعلبات الباطونية.. حتى الإطلالة إما أن تكون باتجاه التلوث والضجة، وإما باتجاه حائط على بعد أمتار قليلة وهو الأفضل وهذا ينطبق على البيوت العربية القديمة، التي نشاهدها اليوم في بيوت حي الأمين ودمشق القديمة، وكل مدينة قديمة لها صفاتها وحياتها وعاداتها. وهناك المدينة الحديثة وهي الحياة التي نعيشها اليوم وانتم تعلمون طبيعة هذه الحياة، كما تشاهدون الآن أسكن حاليا في طابق أرضي، تيمنا ببيتنا العتيق بدمشق القديمة وبزقاق الأشراف، وبحرقة قالها «أنا ابحث عن جيراننا في دمشق القديمة بحي المزة الراقي».

حدثنا عن ذكرياتك مع خبز الصاج؟

● سنوات خلت ذكرياتها تبكي وتترك بالنفس لوعة وحنينا، لا يشعر بها إلا من عاشها وفقد الأحبة، فكيف إذا كانت الأم والجدة والعمة والخالة يا سيدتي هم الأهل وفقدان معظمهم، كنا نصحو على صوت يديها وهي تخبز على الطبلية، كنا «ننق» عليها أن تصحينا من النوم كي نشاركها الخبز بأيدينا الصغيرة، وإذا لم ترض، تحاول أن ترضينا بأن نشعل النار تحت الصاج وحاليا يقال له الفرن.

ماذا عن الوجبة المفضلة؟

● كانت الوجبة المفضلة عند المرحومة أكلة تسمى «العجة» في رمضان أو تصنع لنا المعمول بالتمر في المنزل، وإذا كانت الأحوال المادية ماشي حالها تقوم بشرائها.

وأنواع العصائر؟

● كنا نعتمد على عرق رمضان.. أو عصير قمر الدين وهو مصنوع من المشمش.

وكيف كانت طقوس السحور؟

● يتنهد ويقول «الكانونة» هي الوسيلة الوحيدة من أجل تسخين الطعام خلال السحور، كنت ألف بها أرض الديار من أجل إشعال الفحم الذي بداخلها، وعندها أكون قد ساهمت بمساعدتها، رحمة الله عليها، في إعداد مائدة السحور، وللسحور طقوسه التي يحترمها الصغار قبل الكبار، بمعنى انه ليس فقط أن نملأ معدتنا وننام، بل هناك أمر مهم ألا وهو صلة الرحم، وما له من نفحات إيمانية رمضانية.

ماذا عن الثياب الجديدة الخاصة بالعيد؟

● نظرا للحالة المادية الضعيفة لدى اغلب العائلات في ذلك الوقت، فقد كنت ارتدي ملابس إخوتي لأنني الأصغر بينهم، وأنا صراحة لا أذكر أنني اشتريت ملابس جديدة خاصة بي للعيد.

ثبوت الرؤية

جميعنا يعلم انه في أواخر شعبان يحرص سكان دمشق مثلهم مثل كل سكان المدن العربية والإسلامية، على متابعة إعلان ثبوت الرؤية، أي رؤية هلال رمضان.. وفور إعلان ثبوت الرؤية تكتسي دمشق، تعلو أصوات المآذن معلنة أن رمضان هلّ وأقبل على عباده فتضاء الأنوار في الأسواق وتعلق الزينات على المحال التجارية ويغمر الناس والباعة الفرح، فيتبادلون التهاني والدعوات بشهر كريم وصيام مقبول وطاعة لله تعالى.

عن صلاة الفجر وذكرياتها

● كانت والدتي تصلي الفجر، وبعد أن تنتهي ـ رحمها الله ـ من خياطة وكي وترتيب ملابس العيد الخاصة بنا، تقوم بإعداد مائدة الإفطار.

والدتي شاهدت أعمالي وهي فاقدة للبصر

● بحرقة وألم وحزن تحدث فناننا الكبير عن والدته، فقال: فقدت بصرها من شدة العمل والخياطة من اجل إيصال أسرتها إلى بر الأمان، وقال تصوروا أنها حضرت عرض «مسرحية غربة» وهي لا تبصر النور، من شدة حبها لي، فقط تريد سماع صوتي وهدير أقدامي على خشبة المسرح، وتصفيق الجمهور لطفلها الذي عاش معها حياة الفقر. لقد كنت اذهب إلى المدرسة وكان وجهها السمح آخر من أراه، وعندما أعود للمنزل ابحث عنها مباشرة لتكون الوجه الذي ودعته صباحا، تستقبلنا بوجه باش قائلة «جيتوا حبايبي»، لا تفارقني طناجر الأكل ورائحة الطعام الشهية، وهي تحاول نزع مريول المدرسة عني، يكون مبللا في حال كان الجو ماطرا، وعندما كبرت وتزوجت بقيت على العادة نفسها أخرج من بيتي لرؤيتها يوميا، وعندما أعود من عملي اذهب إليها طالبا الرضا، وأقف عند كل متطلباتها، وهدفي تقبيل يديها، ومن ثم أعود حيث زوجتي وأطفالي بانتظاري، حيث كانوا لا يزالون صغارا «إنها مريم» إنها أمي الحبيبة، ومن شدة تعلقي بها كنت عندما اشعر بأن هالة زوجتي قالت إنها تعبانة أو مريضة أقول لها كانت والدتي لا توجد لديها غسالة ولا غاز على الكهرباء ولا.. ولا! ولم تشتك! بحق كانت والدتي دنياي، رحمها الله.

ولا تفارقني ذكراها عندما اكتب لزوجتي في عيد ميلادها، أرسل لها بطاقة صغيرة مع الورد أقول فيها «يحلق الطير يتعب يعود إلى عشه ليجد الدفء والحب والحنان، ويتمنى لو كان بلا جناحين» هالة عيد ميلاد سعيد، فيك الكثير من مريم، أي أمي.